(٧)

بل فوق مستوى البشر!*

عبارة تعودنا على النطق بها دون فهم حقيقى لمعناها.

فنحن نقول إذا أخطأنا: وماذا أعمل إننى بشر! وأنت إذا قلت ذلك فإنك تلتمس لنفسك عذرا، فأنت - لا مؤاخذة - تسرق، فإذا ضبطوك قلت: أنا بش! وأنت تزنى، فإذا افتضح أمرك قلت: أنا بشر! بل أن بعض الناس يقتلون، ويدافعون عن أنفسهم بقولهم: أنا بشر!.

مع أن الإسلام جاء ليرفع مستوانا عن هذه البشرية التعيسة التى تقترف الآثام وتعتذر عن خطئها بأنها بشر، حقا إننا بشر، ولكننا بشر مسلمون، والبشر المسلم لا يقترف هذه الدنايا لمجرد أنه بشر مسلم، والبشرية مليئة بالأخطاء لأنها فى الواقع حيوانية، حيوانية لها عقل، وهذا العقل مع الأسف الشديد لا يحول دون الخطأ، ولا يعترف دائما بالفضيلة، بل هو فى الواقع قد يكون طريقا إلى الخطأ، وتصور مثلا أن القاتل الذى لا يقتل فى لحظة غضب لابد أن يفكر ويدبر، أى أن العقل هو طريقه إلى الجريمة، وهنا نجد أن البشرية ليست فى ذاتها بحماية للإنسان من الحيوانية، بل إنها حيوانية مسلحة بالعقل الذى يزيدها إجراما فى معظم الحالات، فإن الحيوان الذى يعيش على اللحم يقتل ليأكل، ولا يقتل أبدا ليتسلى أو ينتقم، وهنا نرى أن الحيوانية قد تكون أحيانا خيرا من البشرية أو الإنسانية.

بل إن القرآن لا يحسن الظن بالإنسان المفرد، وهو لا يمتدح الإنسان إلا إذا كان جماعة، لأن الإسلام دين جماعة، دين تعامل، واستمع إلى قول الله سبحانه فى سورة إبراهيم (٣٤) ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ يناير ١٩٩٢م.

واستمع إلى قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفورا، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ الآيات (٦٦ - ٦٩) من سورة الإسراء.

ثم انظر إلى قوله تعالى بعد ذلك عندما يتكلم عن الإنسان جماعة: ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقانهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا، يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ الآيات (٧٠ - ٧٢) الإسراء.

واستمع إلى قوله تعالى فى نفس سورة الإسراء ، الآيتان (٨٣، ٨٤):

قال تعالى: ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوسا. قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ وهذه صورة محزنة للإنسان الذى لا يشكر الله إذا أنعم عليه، وإذا مسه الشر استولى عليه اليأس، والله سبحانه يترك الإنسان حرا يعمل على طبعه لأنه سبحانه يعلم عن كل إنسان كل شيء ومن ثم فهو يعلم بأمور المهتدين وغير المهتدين، بل أن الله يعلم أن الإنسان شديد الجدل فى الدفاع عن كفره، لأنه لا يعلم أن الله يعلم كل شيء: قال تعالى: ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا ﴾ الآيتان (٥٤، ٥٥) من سورة الكهف.

وإذن فالإنسان فى ذاته، وبحكم القرآن شرير أو أميل إلى الشر على الأقل، بل إن الإنسان أشد شرا من الحيوانات، لأنه بعقله يسعى إلى

الاستكثار من الخير ويدخر الأموال ويؤذى غيره فى هذا السبيل، وليس فى الدنيا حيوان شرير إلا الإنسان، لأن الحيوان آكل اللحوم يعتدى ليأكل، وهو لا يعتدى إلا إذا كان جائعا حتى النمر والفهد وكل ما يوصف بالوحشية من الحيوان لا يمكن أن يوصف بالشر، وهو إذا أكل وشبع، واطمأنت نفسه لا يعتدى على غيره إلا فى حالة الخوف، وكثيرون ممن يصاحبون الأسود والنمور يعرفون أنها فى الأساس خيرة، أما الإنسان فشرير فى الغالب، لأن عقله يدفعه إلى العدوان، وإذا نحن قارنا بين ما تفترسه الأسود والنمور والفهود مجتمعة، وما يفعله الإنسان لعرفنا أن الإنسان فى حقيقة أمره شرير معتد أنانى، وعقله هو الذى يدفعه إلى ذلك، ولقد نزلت الكتب السماوية كلها لكى تحمى الإنسان من نفسه. وأنت إذا قلت: أنا بشر! فأنت لا تدفع عن نفسك، بل أنت تسئ إليها. وقولك: أنا بشر ليس فيه رفع لشأنك ولا تحسين لطبعها، ومن هنا نفهم كيف يزنى الإنسان مثلا ثم يدافع عن نفسه ويقول أنا بشر، لأن البشرية فى ذاتها ليست خيرا، وإذن فماذا نعمل؟.

الذى نعمله هو أننا ـ إذا كنا مسلمين مثلا – فإن واجبنا هو قراءة القرآن والحديث لكى نتخلق بخلق الإسلام، وتستطيع فى هذه الحالة أن تقول: أنا بشر مسلم، وفى هذه الحالة ستجد أنك لا تخطئ لأن الإسلام يحميك من شر الإنسانية فى ذاتها، وهذا واجبنا فى التعليم، فنحن لا نعلم أبناءنا الذين فى المدارس لمجرد أن ينجحوا فى الامتحان، بل لكى يكونوا بشرا مسلمين، وهنا لا يمكن أن يقترفوا الأخطاء البشعة التى يقترفها الناس اليوم، ومن هنا أيضا ينبغى ألا نختار أى إنسان ليعلم الدين، بل لابد أن يكون معلمو الدين مسلمين حقيقيين ليكونوا قدوة حسنة للصغار ويدخلوا الإيمان إلى قلوبهم، وهنا تكون هناك فائدة حقا فى دروس الدين، لأن المدرس لابد أن يكون قدوة حسنة للتلميذ لكى يتحسن سلوكه، أما تحفيظه آيات القرآن مع شروح موجزة فلا يمكن أن يكون له أثر فى تكوين الولد والارتقاء بمستواه الخلقى.

وهنا قد يقول بعض الناس: وما العلة فى أن يكون الإنسان مجرد بشر؟ ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرا؟ وأجيب عن ذلك: أجل كان بشرا مضافا إليه أنه رسول. وهذا يغير الوضع تماما، وتعال نقرأ الآيات لكى نفهم الوضع فهما دقيقا. جاء فى سورة الإسراء (الآية ٩٣) ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ أى أن رسول (ﷺ) لم يكن مجرد بشر، بل هو بشر رسول، والرسالة هنا تغير الوضع تماما، لقد خلقه الله ليكون بشرا رسولا، وأعده لذلك، فكان بطبعه رجلا ممتازا خَلقا وخُلقا، ثم أرسل ملكين إليه ليزيده طهورا، ففتحا صدره وأخرجا منه شيئا وأقفلا الصدر. وقد أصبح محمد صلوات الله عليه بشرا هو الغاية فى الصفا. فلما نزلت عليه أول آيات القرآن دهش وخاف، ولكن السيدة خديجة زوجه وقفت إلى جواره وطمأنته، ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل فطمأنه وعرفه بحقيقة أمره فاطمأنت نفسه، ودخل فى الرسالة واستمر نزول الآيات عليه فاستقبلها ثابتا مؤمنا. ومضى يبشر برسالته، وعلى رغم سوء موقف قريش منه تراه دائما ثابتا مدركا لوظيفته متمسكا بها. ولم يصدر عنه إلا كل تصرف كريم نبيل. فلا تقولوا لى: لقد كان الرسول بشرا، لابد أن تقولوا إنه كان بشرا رسولا.

وفى سورة الكهف نقرأ (الآيتان ١٠٩/١١٠): ﴿ قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ . وإذن فرسول الله (ﷺ) كان بشرا مثلنا ولكن الله يوحى إليه. فهو ليس مجرد بشر، بل بشر يوحى الله سبحانه إليه بما يريد ليبلغه للناس. ووحى الله تعالى إليه لا يكون إلا إذا كان أهلا لذلك الإيحاء قادرا على إبلاغه للناس، والناس لن يؤمنوا بأن الله يُوحى إليه إلا إذا كان خلقه وتصرفه مختلفا عن خلق غيره وتصرفه، وبالفعل كان خلق الرسول وتصرفه رفيعين. ومهما تقرأ فى سيرته فأنت لن تجد شيئا تنقده. ومعنى ذلك أنه بالفعل لم يكن مجرد بشر أو مجرد إنسان، بل كان إنسانا من مستوى رفيع، كان إنسانا رسولا يوحى الله إليه.

والله سبحانه يوحى إلى الرسول فى القرآن آيات نفهمُه والمسلمين معه طبيعة الإيمان وكيف إنه نعمة كبرى من الله، وأن الله إذا أنعم على إنسان بالإيمان فهو لن ينزعه من قلبه أبدا، لأن الإيمان نعمة كبرى، والله سبحانه إذا أنعم عليه ارتفعت بالوحى مكانته، واقترب من ربه، وظل على هذا أبدا. قال سبحانه في سورة هود: ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه أنه ليئوس كفور، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير، فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل، أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ الآيات من (٩ – ١٣) وهذه الآيات تشرح لنا جانبا مما كان يجرى بين الرسول والكفار من صراع وكيف كانوا لا يستطيعون أن يصدقوا أن الله يختار إنسانا عاديا يوحى إليه، ولماذا مثلا لم ينعم الله عليه بكنز ليكون من الأغنياء الأقوياء، وكيف لم ينزل الله عليه ملكا يرونه ليعترفوا بأنه رسول؟ فيقول سبحانه لنبيه: إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل، فالله سبحانه يؤيد رسوله أكبر تأييد عندما يقول له إنما أنت نذير، والنذير هنا تعنى شيئا كبيرا جدا، وهو كاف لتأييد الرسول دون أن يمون له كنزا أو يكون معه ملك، ثم يوجه الله سبحانه الكلام للمسلمين ويقول لهم يكفى أن يكونوا مسلمين، فهذا يرفع قدركم ويمكنكم من التغلب على خصومكم؛ لأن الإنسان المسلم ليس مجرد بشر، بل هو بشر مسلم، والإسلام يرفع مستواه البشرى.

قال سبحانه بعد الآيات التى ذكرناها من سورة هود ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فأعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ الآيتان (١٣ – ١٤) سورة هود أى يكفى أن يكون

الإنسان مسلما ليكون فوق مستوى غيره، فهو يؤمن أن القرآن أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو، وهذا يكفيه.

وهذا هو الذى أريد أن أقوله، فإن المسلم لا يجوز له أن يقترف السيئات، ثم يدافع عن نفسه بأنه بشر، فهو ليس مجرد بشر، بل بشر مسلم، والبشر المسلم لا يجوز له ارتكاب السيئات ثم الدفاع عن نفسه بأنه بشر، لأن الإسلام جاء ليحمى الإنسان من بشريته، وهذا الكلام يصدق أيضا على المسيحية؛ لأن الإسلام يقول: إن المسيحية الأصلية وكذلك اليهودية الأصلية هى الإسلام الأصيل، لأن اليهود الأوائل والمسيحيين الأوائل أضاعوا نص التوراة والإنجيل ثم كتبوهما من عقولهم، ولهذا فقد جاء القرآن الكريم بنص كلام الله كما أنزل على موسى وعيسى والله سبحانه قرر أن يحافظ على نص القرآن كما أنزل حرفا بحرف، وكان رسول الله (ﷺ) حريصا على أن يكرر لفظ القرآن عندما تنزل عليه الآيات لكيلا يضيع منها شيء، فطمأنه الله سبحانه على أنه سيحافظ على نص القرآن سليما كما أنزل إلى آخر الزمان. وقد قرر الله ذلك فى القرآن إذ قال فى آيات عظيمة من سورة الحجر (الآيات ٥ - ١١): ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون، ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ . وقد اطمأن الرسول صلوات الله عليه بهذه الآيات، ونحن أيضا نطمئن بها، ونعرف أن ما جرى للتوراة والإنجيل لا يمكن أن يجرى على القرآن الكريم، وإذن فلا يجوز أيضا على المسيحى الصادق أن يخطئ ثم يدافع عن نفسه بقوله أنا بشر.

ثم إن تشريع الإسلام فى غاية الحكمة، ومن ذلك أن جريمة القتل من الممكن أن تخف العقوبة عليها كثيرا إذا عرض القاتل على أهل المقتول أن

يدفع لهم تعويضا هم بحاجة إليه إذا اخذوا الدية ، ولم يعد لهم عند القاتل حق، ويبقى بعد ذلك حق الأمة الإسلامية على القاتل، وحق الأمة هو حق الدولة اليوم، والدولة تحقق مع القاتل، وقد يجد القضاة أن القاتل كان فى حالة غضب بالغ أو كان له بعض العذر فى القتل فتخفف عقوبتهم له ، أما الزنا فإنه جريمة لن تخفف عليهما العقوبة أبدا ، لأن الزنا تهاون فى حق الإنسانية ، ولا يمكن أن يكون هناك عذر للزانى أو الزانية . والذين يرتكبون هذه الجريمة لا يقعون فى الخطأ إلا بعد تفكير وتدبير ، من هنا فلا يمكن تخفيف العقوبة ، لأننا إذا تساهلنا فى عقوبة الزانى كان فى ذلك خطر على المجتمع ، ولهذا لابد من عقابه ، هذا مع أن القوانين الأوروبية ـ لأنها من وضع البشر – تجعل العرض ملكا للإنسان ، فإذا ارتكب إنسان هذه الجريمة وتنازلت المرأة أو أهلها عن حقهم لم تكن هناك جريمة ، ومن هنا كان هذا التساهل الشديد فى أمور العرض فى الغرب ، بل إن الغرب أباح للمرأة أن تحترف البغاء إذا أرادت ، وكان ذلك موجودا فى بلادنا أيام الاحتلال البريطانى والإنجليز قالوا إنهم لابد أن يدخلوا البغاء فى بلادنا حماية لنسائنا من عدوان جنود الاحتلال. وقد زال ذلك والحمد لله. أما فى الغرب فإن البغاء أو العدوان على العرض يجرى فى كل مكان.

وإذن فتشريع الإسلام أرفع من كل تشريعات الغرب ، ونحن لهذا نقول إنه لا يجوز لإنسان مسلم أن يقترف جريمة ثم يقول أنا بشر ، لأن البشر العادى قد يخطئ ، ولكن البشر المسلم لا يجوز أن يقع فى الخطيئة ، ومن حسن الحظ أن المشرعين عندنا لم يتساهلوا فى تطبيق شريعة الإسلام إلا فى مسألة السرقة ، ونحن لسنا معهم فى ذلك ، ولكنهم يقولون إنك إذا قطعت يد السارق جعلته عاجزا عن العمل وجعلته عبئا على المجتمع ، ونحن نقول إن استبدال قطع اليد بالسجن يشجع على الجريمة ، ونحن إذا نفذنا قطع اليد فإن الناس ستخاف ، ولن يسرق الناس إذا علموا لأنه من

الممكن أن يضبطوا وتقطع أيديهم، من هنا فإن شريعة الإسلام فعالة جدا في ذلك، ولنجرب أن تقطع يد السارق بدلا من سجنه وإيقاع غرامة عليه، فإن السجن أحيانا لا يكون عقوبة، بل راحة أو حماية للسارق، أما قطع اليد أو الرجل فعقوبة ترهب أي إنسان، ومن هنا فإن عدد اللصوص سيقل جدا في حالة العقوبة بقطع اليد أو الرجل.

ومن هنا فإننا نرى أن المسلم المخلص والصادق لا يمكن أن يسرق ويعرض نفيه لقطع اليد، لأن هذه عقوبة شديدة جدا، ثم إنها فضيحة، فكل من يرى إنسانا مقطوع اليد يعرف أنه لص، ومن هنا فإن تطبيق شريعة الإسلام هنا يحمي المجتمع حقا، ونحن نرى في التليفزيون جرائم سرقة يرتكبها بعض أناس استخفافا للعقوبة، هذا ولو أنه حتى في العصور الإسلامية الماضية كان القضاة يتحاشون الحكم على السارق بإثبات السرقة، لأن قطع اليد عسير، وهو عقوبة كبرى، ولكنه على أي حال عقوبة رادعة، ما في ذلك شك.

الدين المعاملة:

ولدينا حديث شريف يقول: إن الدين هو المعاملة، ونحن نردد هذا الحديث الشريف دون أن نعلم أنه يوضح طبيعة الإسلام ورسالته ببلاغة وعمق عظيمين، فإن الوظيفة الرئيسية لكل دين جدير بهذا الاسم هي تهذيب طباع الإنسان ومواجهة غرائزه الحيوانية، لكي يصبح إنسانا رفيع الخلق والطباع ومأمونا في معاملاته، ولا يمكن أن يقتصر معنى الدين على انقطاع الإنسان عن العمل وتركيز الجهد كله في عبادة الله، فإن الله سبحانه ليس في حاجة إلى عبادة الناس، حقا إن الله سبحانه يقول في سورة الذاريات (آية٥٦) ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ والعبادة هنا يدخل فيها العمل وكسب الرزق والقيام بكل ما يصلح الأرض والناس، فالإنسان مكلف بالقيام بالعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، وهو مكلف

أيضا بالعمل الحلال ليعيش حلالا، ولرسول الله ﷺ حديث شريف جامع لحقيقة الإسلام فقد قيل له إن فلانا من الناس منقطع للصلاة والعبادات، قال الرسول ﷺ ومن أين يُطعم؟ فقالوا كلنا نطعمه، فقال كلكم خير منه، وهنا يختلف الإسلام اختلافا بينا عن الكاثوليكية التي تدعو إلى الانقطاع للعبادة، بل تلزم القسس بالانقطاع عن العمل غير الديني والزواج، والسبب في ذلك أن الكاثوليكية لم تتنزل من السماء بل هي من صنع الإنسان، والقديس بوليس هو الذى شرع فى صناعتها ـ معتمدا ـ كما يقولون على ما رأى من المسيح وعندما انتقل إلى روما وأكمل وضع أسس الكاثوليكية كان يحرم على الناس العمل، ويدعوهم إلى الانقطاع للعبادة، وهذا أمر لا معنى له لأن الله ليس في حاجة إلى عبادة الناس، وإنما هو دعاهم للقيام بالعبادات رفعا لمستواهم وإخراجهم عن نطاق الحيوانية الغريزية، وفي سورة الذاريات نفسها يقول الله سبحانه بعد الآية التي ذكرناها آنفا (الآيتان : ٥٧/٥٨): ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

وكل آيات القرآن الكريم تدعو الإنسان إلى رفع نفسه عن مستوى الحيوانية، وإذن فلا معنى لأن تقترف المساوئ، ثم تحاول الدفاع عن نفسك قولك: أنا بشر.. طبعا أنت بشر، ولكنك بشر مسلم، والإسلام يرفعك عن مستوى الحيوانية، وذلك هو فضل الله سبحانه على الإنسان، وذا ذكرت دائما أنك بشر مسلم فقد حميت نفسك من الرذائل واقتربت من الخالق سبحانه، وكل كبار صحابة الرسول ﷺ كانوا يعملون ويكسبون رزقهم، وقد عرضوا المعاونة على عبد الرحمن بن عوف عندما هاجر إلى المدينة فقال لا، بل دلوني على السوق، وذهب إلى السوق وعمل وكسب رزقه وأصبح من ذوى المال الكثير.